البستان المغصوب [١١]

جاءت امرأة مسرعة فزعة إلى شريك بن عبدالله النخعي [١٢] قاضي الكوفة وهو في مجلس القضاء ، فقالت : أنا بالله ثم بالقاضي . فقال شريك : ما الخبر يا امرأة .. من ظلمك ؟ قالت : نائب الخليفة وابن عمه أمير الكوفة موسى بن عيسى [١٣] . كان لي بستان على شاطئ الفرات فيه نخل ورثته من أبي وقاسمته إخوتي ، بنيت على حصتي من النخل حائطاً أُمَيِّزُ به نخلي من نخل إخوتي ، وجعلت في بستاني حارساً يحفظ نخلي ويرعاه . فاشترى الأمير من جميع إخوتي ، ثم ساومني على بستاني ورغبني بمال كثير لكني لم أبعه . فلما كانت البارحة .. بعث بـ ٥٠٠ جندي اقتلعوا حائط البستان الذي بنيت ، فأصبحت لا أعرف من نخلي شيئاً . لقد اختلط بستاني ببساتين إخوتي التي اشتراها الأمير منهم ، فأنا الآن بالله ثم بالقاضي أن يرجع لي بستاني المغصوب .

---

(١١) المصدر كتاب قضاة عادلون في ظل الإسلام لمحمد عبدالرحيم .. بتصرف . وللكاتب كتابان آخران جميلان ، الأول «رجال عقلاء في ظل الإسلام» ، والثاني «أطفال نجباء في ظل الاسلام» ، فيهما قصص جميلة أيضاً .

(١٢) القاضي شريك النخعي (٩٥ - ١٧٧هـ) إمام فقيه محدِّث ثقة ، اشتهر بقوة ذكائه وورعه وعدله . تولى القضاء في زمن الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ، ثم المهدي شقيق الخليفة هارون الرشيد .

(١٣) موسى بن عيسى : من الأمراء العباسيين الولاة ، ولي الحرمين للمنصور والمهدي ، ثم ولي اليمن ومصر والكوفة .

obeikandl.com

فقال القاضي شـريك لحاجبه (مدير مكتبه) : أحضر طينة لأختمها (طينة يابسـة يختمها القاضي علامةً على أنها مرسـلة منه) . فأحضرها الحاجب ، وختمها شـريك ثم قال له : امض إلى باب الأمير حتى يحضر معـك . فأخذ الحاجـب الطينة وصحب المرأة معه ، ثـم دخل على الأمير موسـى بن عيسـى وقال له : قد شـكتك هذه المرأة إلى القاضي وهو الآن يطلبك ، وهذا هو ختمه على الطينة .

اسـتدعى الأمير رئيس شـرطته وقال له : امض إلى القاضي وقل له : يا سـبحان الله ، ما أعجب أمـرك أيها القاضي ، امـرأة ادَّعت دعوة باطلة تصدقهـا وتجعلني خصماً لها ، وترسـل في طلبي وكأني متهم أو سـارق . فقال صاحب الشـرطة الذي يعرف قـوة القاضي ومكانتـه : إن رأى الأمير أن يعفيني من ذلك ، ويرسـل أحـداً غيري إلى القاضـي . فقـال الأمير : امض ويلك .

وقبل أن يخرج رئيس الشرطة إلى القاضي ، ذهب إلى بعض موظيفه من الشرطة وقال : اذهبوا واحملوا لي إلى السجن فرشاً وبسطاً وكل ما يحتاج إليه المسـجون من شـراب وطعام ومتاع . ثم ذهب بعد ذلـك إلى القاضي

شـــريك ، فلما وقف بين يدي القاضي وأدى رســـالة الأميـــر ، قال القاضي شريك لأحد موظفيه : خذ بيده إلى الحبس . فقال رئيس الشرطة : والله لقد علمت أيها القاضي أنك حابســـي ، فجهزت حبسي بكل ما احتاج إليه من زادٍ وتمرٍ ووسائدٍ وفُرُش .

بَلَغَ الأمير ما فعل القاضي برئيس شـــرطته ، فدعا الأمير حاجبه وقال : قل للقاضي : رســـولٌ أدى رســـالة ، فعلى أي شيء تحبسه ؟! فإنه ما اعتدى ولا غـــش ولا خان . فلما وصل حاجب الأمير وأدى رســـالته ، قال القاضي لبعض موظفيه : اذهبوا به إلى رفيقه في الحبس .

فلما عَلِم الأمير بسجن حاجبه ، استشاط غضباً ، وقصد مسجد الكوفة الكبير وصلى العصر فيه . فلما فرغ الأمير من صلاته ، التقى في المســـجد بوجهـــاء الكوفة من أصدقاء شـــريك وقال لهم : أبلغوا القاضي الســـلام ، وأعلموه أنه قد اســـتخف بي وســـخر مني ومن أعواني ، وأعلموه أنني لست كالعامة ، وذكِّروه بأني أمير الكوفة وابن عم الخليفة .

orekandi.com

فذهب وجوه الكوفة وأعيانها إلى القاضي وهو جالس في مسجده بعد العصر فأبلغوه الرسالة . فلما انتهى كلامهم إليه ، قال : ما لي أراكم جئتموني في المسجد وأمام الناس فكلمتموني ؟! فالتفت القاضي يميناً وشمالاً ثم قال : من ها هنا من فتيان الحي ؟ إني أريدهم أن يساعدوني في أمر . فأجابه جماعة من الشباب ، فقال لهم : ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل فيذهب به إلى الحبس . ثم التفت إلى أعيان الكوفة وقال : ما أنتم إلا فتنة تتداخلوا في القضاء لترضوا الأقوياء وتمنعوا الضعيف المظلوم من حقه ، فجزاؤكم الحبس . فقال وجوه الكوفة : أجادٌّ أنت فيما تفعل ؟ قال : نعم ، حتى لا تعودوا تحملوا رسالة ظالم . فحبسهم جميعاً .

فلما بلغ الأمير ما فعل القاضي بأعيان الكوفة ووجهائها ، جُنَّ جنونه ، فأخذ جنده واتجه إلى باب السجن وفتح أبوابه وأخرجهم كلهم منه . فلما بلغ القاضي ذلك ، دعا بصندوق ووضع فيه ختمه وأوراقه وكتبه ، ثم أغلقه وخَتَمه ، وأرسله إلى بيته .

استدعى القاضي شريك غلامه ، وقال له : سأرحل إلى بغداد وعليك أن ترسل متاعي والصندوق المختوم إلى هناك . والله ما طلبنا هذا القضاء منهم ، ولكنهم أكرهونا عليه ، وقد كفلوا لنا الإعزاز والكرامة والمكانة إذا تقلدناه وقبلناه لهم .

مضى القاضي على ناقته نحو جسر دجلة إلى بغداد ، وبلغ الخبر الأمير موسى بن عيسى ، فركب مع كوكبة من الفرسان ولحق بالقاضي . فلما وصل إلى القاضي جعل يناشده ويقول : تثبَّت أيها القاضي من الشكاية قبل أن تحبس رجالي وأعواني . فقال القاضي : مشوا لك في أمر لم يجز لهم المشي والتوسط فيه ، ولست براجع إلى الكوفة حتى تعيد إلى السجن جميع الذين أخرجتهم منه ، وإلا ذهبت إلى أمير المؤمنين فأستعفيه مما قلدني . فأمر الأمير موسى بردِّهم جميعاً إلى السجن ، والقاضي شريك واقفٌ مكانه ، حتى جاء السجّان فقال : مولاي القاضي .. لقد رجعوا جميعاً إلى السجن . فقال القاضي للسجّان : خذ بلجام حصان الأمير أمامي إلى مجلس الحكم .

جلس القاضي في مجلس القضاء ، وبين يديه الأمير والمرأة المتظلمة . فقال القاضي : هذا خصمك أيتها المرأة قد حضر . فقال الأمير : قبل كل شيء .. ها أنا قد حضرت ، فأُمُر أيها القاضي بأن يخرج المسجونون من السجن . فقال القاضي : أما الآن فنعم . فأمر بإخراجهم من السجن .

قال القاضي للأمير : ماذا تقول فيما تدعيه عليك هذه المرأة ؟ فقال الأمير : صدقت . فقال القاضي : تردُّ ما أخذته منها ، وتبني لها سور بستانها سريعاً كما كان . فقال الأمير : أفعل ذلك . فقال القاضي للمرأة : أبقي لك عليه دعوى ؟ قالت المرأة : بيت الحارس ، قد هدمه وأخذ الجند متاعه . فقال القاضي : ويردُّ ذلك كله .. هل بقي لك عليه دعوى ؟ فقالت المرأة : لا ، وبارك الله فيك وجزاك الله خيراً .. ثم انصرفت .

فلما فرغ القاضي من هذا الأمر ، قام وأخذ بيد الأمير وأجلسه في مجلسه وقال له : السلام عليك أيها الأمير .. أتأمر بشيء ؟ فقال الأمير وهو يضحك : أي شيء آمر . فقال القاضي شريك : أيها الأمير .. ذلك الفعل مني كان حق الشرع والعدل ، وقولي لك هذا حق أدبي معك .

openkanal.com

قــام الأمير وانصرف إلى داره وهو يقول : من عظَّم أمر الله ، أذلَّ اللهُ له خلقه جميعهم .

obeikandl.com

قال الإمام الشافعي رحمه الله

توكلــت في رزقي على الله خالقي ... وأيقنــتُ أنَّ اللــهَ لاشــكَّ رازقي

ومــا يكُ من رزقــي فليس يفوتني ... ولــو كان في قاع البحــار العوامق

ســيأتي به اللــهُ العظيــمُ بفضله ... ولو لم يكــن مني اللســان بناطق

ففي أيِّ شيء تذهب النفسُ حسرةً ... وقد قسَّــم الرحمــنُ رزقَ الخلائق

obeikandl.com